فاتح الجو المصري

يا طيرَ المثل الاعلى !

لقد انفلتَّ من رذيلة الخوف وتركتها في التراب موطئ القدم ، وقلتَ لها ويحك لقد آن للشباب المصري فهو سفاريس في ماء الصواعق [1] ، مُتَطَوِّحٌ في اللُّجَّة الأزلية التي تغوصُ فيها الكواكب [2] ، يطيرُ بروح الشرارة ، ويَهبِطُ بروح الغيث ، ويُلَجِّمُ الجوَّ ويُسَرِّجُه ، ويتعلم كيف يَشْوي عدوَّه في عَيْن الشمس

وكنتَ بطلاً مُغامِراً تخطوتَ في طريق الملائكة بهذه الفضيلة وحملك الجو ، ولو انك خِفْتَ وكنتَ على جَناحَي جبريل لا على طيارة ، لخافَ جبريلُ على جناحيه من تحطُّمة هذا المعنى الترابيّ الطاغية الذي يحكمُ على الأحياء بالموت بلا موت . موت بالذل والخضوع والرذيلة

وحملك الجوُّ الى قبة السماء ، وهنالك نظر العالَمُ فرأى لمصر الناهضة عَلَمَها الانسانيَّ يتنفَّسُ تحت الكواكب

وحملك الجو البناء فلما رفعنا رءوسنا لنراك رفعناها في الوقت بين شعوب الارض

***

وضربت يا جَناحَ مصر في الهواء وأعْنانُ السماء [3] مملوءةٌ بالزَّعْزَع والهوجاء والعاصف ، والسماء في فصلها المكْفَهِرّ الذي تخلعُ فيه كلَّ ساعة وتلبسُ وعزق [4] وتَطْوي ، فزدتَ بجرأتك في براهين القضية المصرية برهان قوة المخاطرة . وأضفتَ الى منطقها وضاحاً جديداً مُفْعَماً من روح التضحية

وطرتَ بين حياة وموت فجعلتَهما بسْتويان في اعتقادك إذ وصلتَ فكرةَ الموت بسرِّ الإيمان والحياة بسرِّ العزيمة

وكنتَ رَجُلَ أمَّتك بانكار ذاتٍ نفسك من أجلها

واتسعتَ للتاريخ بوضعك عمرَكَ المحدودَ على الطيارة وقذفك بها وبه في مُسْبَح الأجَل

---

(١) كناية عن السحاب (٢) كناية عن اجواز الفضاء (٣) نواحيها جمع عنان بالفتح (٤) كناية عن طبيعة الشتاء من الغيم والصحو وما بينهما

وتجردتَ للأبدية لتعطيَ بلادَك إما شهيدَ مجد في الآخرة وإما شهادةَ فخر في الدنيا. وكنتَ على طيارتك الصغيرة المتطايرةِ تحت الريح وحولك روحُ الهرم الأكبر القائم بإرادة مصر وكأنهُ مسمارٌ مدقوق في كرة الارض بين القطب والقطب

***

وأنتِ يا « فاتِرة » . يا هذه الصغيرةُ الخارجةُ من مال صاحبها وجهده وعزيمته كالخارج القوة من ضَعف، أعلمتِ إذ أنتِ ترتفعين وتهبطين بين السُّحُب كما تتوائبُ الفَراشةُ على النوّار في روضة مُزهرة

وإذ أنتِ تَفتُقين وتحُوكين في مُلاءة السحاب كأنك بمحركك الدوّار تسجين في السماء بمِغزَل

وإذ أنتِ بين صَفْق الرياح الهوج[1]، تحت السماء المدجَّجة[2] في كبَّة الشتاء[3] كأنكِ مناظرة تجري بين العزيمة في الانسان والعزيمة في الطبيعة

وإذ أنتِ بين ذئاب الأعاصير وغُور السحاب[4] وسباع الغيم ذوات اللِّبدة الكثيفة المُتشعِّثة، كأنك بصوتك وأزيزك تطلقين على وحوش الجو مدفعاً رشاشاً يتركها صَرعَى

وإذ تراكِ الريحُ تقول عنكِ ريحٌ صنعها الانسان، وبراك النجم فيقول نجم أفلتَ من النظام الارضي، وتراكِ الملائكة فتقول ومحكَ يا ابنَ آدمَ كانك بما خَلَقَهُ العقلُ تطمعُ منا في سَجْدَةٍ اخرى كالتي سجدناها لآدمَ يومَ خلقهُ الله

أعلمتِ إذ أنتِ كذلك « يا فاتِرة » أن التاريخ المصريَّ سيحوّلكِ من طيارة الى آية كآية بدء الخلق لان فيكِ بدء الطيران في مصر

***

سلاماً يا فاتحَ الجو المصري . لقد أجالت الايامُ قِداحَها فخرجت القُرعةُ عليك وأوحَى اليك الواجبُ آيةَ : بسم الله مَصمَدُها ومجراها

وطرتَ فاذا انت بها عابرٌ فوق الحاضر لتجيئنا من جانب المستقبل

وهبطتَ علينا كأنك في بريد السماء كتابُ مجدٍ حيّ للوطنية الظافرة

---

(١) اضطراب الرياح المتقابلة (٢) المتنبه (٣) كبة الشتاء شدته ودفعته (٤) يقال ريح متذئبة اذا كانت تجيء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب فوضعنا من هنا كالذئاب الرياح . والنمر من السحاب قطع صغار متدان بعضها من بعض تشبيهاً بجلد النمر فوضعنا منها نمور السحاب

بل كتاب قصة رائعة نسّقها المواصف من قدّين : ثورة الجو وثورة نفسك المصرية . وحكمتها في صوتين زفيف الطيارة وصرخة ضميرك الوطني . وجعلتها فصلين : أنت والمجهول. ألا حسبك مجداً أن يحيا الشعب كلّه بضعة ايام في قصتك

***

فعلى مهد الجو ، وفي حرير الشعاع ، وتحت كلّة السحاب ، وُلِدَ لمصر يوم تاريخي وخرجت التهانئ التي طال احتباسها في القلوب المصرية لا يُفرَجُ عنها لان سجّانها ظُلْمُ السياسة

واتجهت أفراحُ شعب كامل الى الفتى الجريء الذي رَمَتْ به همتهُ فوق هاوية الموت فتخطاها. وتلقّى شعورُ الامة رسولَهُ المقدام الذي لم يكن له ملجأ في خطاره الا شعورَه بهذه الأمة. وارتجّ الوادي كلّه كأنهُ عَمِدَ يتقاتل حين يُسلُّ منهُ السيف

ثم أُهديت كلمة مصر لابنها الذي كتب في جوها الكلمة السماوية الاولى. وكانت ساعة تلاشى عندها الزمن فارتفعت منه اربعة آلاف سنة وهتف معنا الفراعنة: بوركتَ يا «صدقي»

***

لله درُّك أيّتها ابن عزمة . كأنما كشفتَ أهاويل الوحي وهبطت في سحابة مُحَلْحِلَةٍ تدوي ، إنْ لم تحمل كتاباً منزّلاً فكأنما حملت شخصاً منزّلاً

ولعلك رسولُ الغيم العابس لهذا الجو المصريّ الذي يضحكُ دائماً ضحكةَ الفيلسوف الساخر في حين أصبحت الحياة قوةً لا فلسفة . . . .

ولعلك مبعوثُ البرق والرعد لهذا السكون الناعم الذي يطوي كلَّ يوم في طي النسيان ما حدث في اليوم الذي قبله . . . .

ولعلك نبيُّ الجِدّية والمرارة لهذه الحلاوة البليدة المفرطة التي كاد بها الشعب أن يكون سُكّرَ أخلاق يذابُ ويُشرب . . . .

ولعلك تفسيرٌ مصحّحٌ لعقيدتنا المغلوطة في القضاء والقدر ، أنّ القضاء أنْ نُقدِمَ بلا خوف وأن القدر أن نثق بلا مبالاة

أما والله لقد غمرتَ الشعبَ بموجة هواء جديدة جئت بها في جناحيك. ونفختَ روحَ طيارتك المجيدة في القلوب فجعلتَها كلها ترفرف كأن لك في ضلوع كل مصريّ طيارة

مصطفى صادق الرافعي